شعرية النص في أدب الطفل
عتبات وتمثلات

د. نعار محمد *

يتأسس عمل هذا البحث من منطلق عتبة أساسية يدعوها سيرورة، بمعنى أن قراءة في أدب الطفل مرهونة بحساسية زمنية، حساسية التمثل الذي اجتهد البحث أن يُلبسه موضوع الورقة، مستأنسًا ببعض التوجيهات قد تكون في غير محلها. حتى لا يكون الحديث عن أدب الطفل موجهًا، وإن كان ثمَّة ما يبرر ذاك لأهداف تربوية وجهات مؤدلجة مع صعوبة الإقرار بذلك، إلا أن حضور ذلك التمثل معنويًا ورمزيًا، لا يفتأ يصنع كينونة هذا الفضاء، من زوايا نظر مُعلَّلة، على أساسها مبتدأ ومنتهى شعرية مقصودة في نوعها، حتى لا نضيع في فوضى التمثلات وإن كانت فوضى مُبرَّرة يجد المنشغل بهذه الكتابة نفسه دُنكيشوتيًا وباحثًا عن إيجاد براديغم (نسق) يؤطِّر تلك الكتابة بمعزل عن مصوغات راهنة مبررة في هذا الأدب من الصعوبة بمكان، عندما يتحلق هذا الفعل بشعار القضية الوطنية لا اعتباطية تتحجج بها العلامات، وإن كان المنأى في هذا الحال ، يبيح خطًا موازيًا. فحياة الطفولة كنص وحضورها كفعل هو نص مُوازٍ لحيوات متجاورة تتطاحن فيها ثنائيات: قوى الظلم والاستبداد من جهة، وقوى الحرية والخلاص من جهة أخرى.

يحاول البحث أن يتمثل هذا السياج الدلالي للطفولة، ضمن نص شعري (الجدَّة لأحمد شوقي) نستدل من خلاله: كيف استطاع أن يولِّد من كلماتٍ بسيطة ذلك الفيض الدلالي؟ كيف بُرمجت مشاعرنا تجاهه؟، والنص المختار يحمل اشتغالًا جليًا مستهدفًا يمكن أن يستدل به على فهم العتبة وتمثُّلها، عندما يلامس وترًا حساسًا في وجدان المجتمع العربي عندما يكون المقصود هو الجدة.

لا شك أن النص مهما كانت بواعثه وآفاقه، هو في الأخير ما يتحجج به من مسالك تستهدف

* جامعة ابن خلدون ـ تيارت الجزائر.

تلك البواعث، تخص حالًا ومقالًا: صاحب القول ولغة القول ومُتلقِّي القول. تلك الأحوال التي تستهدف العناية باللغة باعتبارها الفعل التنزيلي الذي تتحقق به الأغراض المرجوَّة. تقف إذًا مفاهيم النص عند بنيات التفاضل المترتبة عن تلك الأحوال، من زاوية دلالية مقصودة تباعًا لدور اللغة كفعل تتحقق به الأغراض؛ وبالتالي يستطيع المتأمل أن يراهن على هذا الدور ويضع مسلكًا يوجه من خلاله موضوع البحث أدب الطفل وما تتمثل به أساسًا لغته من حساسية أو هسهسة، وهي تغمر دواخل المتلقي والعناية بهذه الخصوصية كانت من بواكير الفتوحات النفسية، الأولى وهي تعقد وصلًا بالطفولة والكتابة عنها وإلا فإن هذا الاهتمام كان قبل ذلك، على غرار علم النفس التربوي، في مجالات مختلفة إذ كان للأدب نصيب منها؛ الديداكتيكي على الأخص: اشتمل التنشئَة النفسية لفئات عمرية، تبدأ من فترة الولادة.

تلك البواكير جعلت من هذا الحقل، دافعًا نحو تأسيس فضاء معرفي جديد، انشغاله الوحيد هذه المرة هو في حيثيات التأسيس والتأصيل لكل ما يشغ`ل هذه الفئة والمقصود فكان أدب الطفل. ليس من دواعي البحث الخوض في هذه المسائل (التأسيس والتأصيل)، فضلًا عن أن مادة (أ. د. ب.) معجميًا تغني دلاليًا مبنى ومعنى هذا الحقل، كما تشير نحويًا الإضافة (أدب الطفل) إلى ذلك. وعليه، فمراد البحث أن يستفيد من هذا التأسيس مداركَ ومخارجَ ما أمكن؛ حتى يشفع له مقاربة هذا النوع وتعقبه. ويقترح البحث جملة منها يراها تشبع هذه الضالة؛ وهي: العتبات النصية، حساسية اللغة أو الهسهسة، سيميائية الأهواء، مستأنسًا بفتوحات التحليل الأسلوبي يراه يزكي ما هو بصدد الدفاع عنه في مسائل التفاعل المذكورة سابقًا.

تفصيلات إجرائية: مفاهيم لا بد منها

من بين أولويات البحث هو تحديد المصطلح والتقيد به. يقول ڤولتير في هذا الخصوص: "كي تتحدث معي حدد مصطلحاتك" ولأن أي بحث يراهن على ذلك فإن هذا البحث يحاول أن يتقيد بذلك، ومن جملة ذلك بعض المصطلحات التي وردت فيه، ومن باب أولى أن يقدم البحث على تقديمها والتعريف بها؛ حتى يتبين مسار هذا البحث منهجيًا، ومن جملة المصطلحات التي وردت والتي يراها تلبي تلك المطالب المنهجية:

ـ العتبات النصية:

العتبة هي ما يمهد للتعرُّف إلى بوابة معرفية.. ما العتبة دليل تلك البوابة (قصة سيدنا

إبراهيم وزوج ولده إسماعيل)، هي الامتحان التمهيدي لاختبار حساسية القارئ. يقول نبيل، منصر (٢٠٠٧، ص٢٥): "إنها جملة عناصر تحيط بالنص تحدده تحديدًا من أجل تقديمه بالمعنى المألوف لهذه الكلمة..".

وهي على أقسام.. يذكر عبد الحق، بلعابد (٢٠٠٨، ص ٤٩، ٥٠) "النص المحيط والنص الفوقي:

- **النص المحيط** (peritexte): ما يحيط بالنص من مُلحَقات نصية من اسم الكاتب، العنوان، العنوان الفرعي، الإهداء، الاستهلال، التصدير، المقدمة، البيانات، نشر الغلاف، صورة الغلاف، أي كل ما يشمل خارج النص.
- **النص الفوقي** (epitexte autorial): كل ما يتعلق بخارج الكتاب من حوارات ومقابلات ومراسلات وتعليقات، وينقسم إلى قسمين:

النص الفوقي النشري: ويشمل الإشهار، قائمة المنشورات، الملحق، دار النشر وإصداراتها.

النص الفوقي التأليفي وينقسم حسب چينيت إلى قسمين:

- **عام:** ويشمل اللقاءات الصحفية المناقشات والندوات حول مُؤلَّفات الكاتب.
- **خاص:** ويشمل المراسلات والمذكرات الشخصية للكاتب".

أما عن وظائفها:

- **وظيفة إخبارية:** تكمن في الإشارة إلى اسم الكاتب ودار النشر وتاريخ النشر من جهة، وعلى سيرورة تأويلية معينة متصلة بالكاتب من جهة أخرى.
- **وظيفة التسمية:** وتتمثل في العنوان حيث يعتبر عتبة أساسية في النص تشير إلى اسم الكاتب.
- **وظيفة التعيين الجنسي للنص:** هناك أنواع في الأعمال الأدبية ومن خلال هذه الوظيفة تعين النوع الأدبي (رواية، شعر، مسرحية، قصة) وتبرز وجوده في الإنتاج الأدبي.
- **وظيفة تحديد مضمون النص ومقصديَّته:** ويتمثل في العناوين الداخلية والخارجية مثل عنوان صفحة الغلاف والخطاب التقديمي، وذلك لإبراز الهدف والغاية من تأليف الكتاب".

العنونة:

العنوان الجيد هو أحسن سمسار للكتاب. يقول نبيل منصر (ص٤٠): ".. فهو تارةً جزء من

النص أي المتوالية اللسانية الأولى فيه، وتارة أخرى مُكوِّن خارجي أي العنصر الأكثر خارجيةً ضمن المصاحبات النصية المُؤطِّرة للعمل"، ويذكر حميد الحمداوي (ص ٣٨) "... إنه الأداة التي بها يلحق اتساق النص وانسجامه، وبها تبرز مقروئيَّة النص وتنكشف مقاصده المباشرة وغير المباشرة؛ وبالتالي فالنصُّ هو العنوان والعنوان هو النص"، وفي المنوال نفسه يذكر محمد أيوب (مجلة): "العنوان هو القصة القصيرة وهو البوابة التي تدخل بالقارئ إلى متن النص؛ لذا على المتلقي تناول عتبة العنوان قبل متن النص".

وظائف العنوان:

للعنونة وظائف متعددة أهمها الدواعي الموضوعية التي مهدت في تأسيسها، وقد كان هذا الأمر مطروحًا بشدة على الساحة الثقافية العربية خصوصًا في الشعر فيما كان معروفًا بوحدة البيت، فالنص العربي وتركيبه لم يكن يحفل لأسبابٍ موضوعية بعنونة النصوص الشعرية إلا متأخرًا، حين واكبت القصيدة تحديات جديدة عهدت بها إلى إدخال هذه العتبة الجديدة باب الشعر، وعمومًا جاءت العنونة لتتكفل بالمهام الآتية: يذكر نبيل منصر (ص٤٥): "وقد انتهى شارل غرنيفيل إلى صياغة ثلاث وظائف للعنوان:

١ـ تحديد هُويَّة العمل.

٢ـ تعيين مضمونه.

٣ـ إبراز قيمته (لهذه الوظيفة علاقة بإغواء الجمهور)".

أما جميل الحمداوي فيذكر (ص٥): "يحدد جيرار جينيت للعنونة أربع وظائف أساسية؛ هي: الإغراء والإيحاء والوصف والتعيين".

سيميائية الأهواء:

لماذا سيميائية الأهواء؟ وقبل ذلك لماذا السيميائيات؟ المعلوم أن هذا الحقل دلالي بامتياز يشغله المعنى أولًا والاستدلال عليه ثانيًا، والأهواء سيرورة إجرائية حديثة في هذا الحقل، تعمل على سبر المعنى عبر مُخرَجات الفعل وردوده، وهي في السرد عمومًا والقصة خصوصًا سبر لتلك العواطف أمام محورَي التحليل السردي (الأقوال والأحداث). وسيميائية الأهواء وصل ينتقل فيه الفعل من كونه عملًا تحركه دوافع طارئة إلى عمل تُوثِق وثاقه عاطفة كما يذكر ألجيرداس غريماس، چاك فونتاني (٢٠١٠، ص٦٢) ".. فالإنسان لا يفعل فقط إنه بالإضافة إلى ذلك يُضمِّن

الفعلَ شحنةً انفعالية تحدد درجة الكثافة التي يتحقق من خلالها هذا الفعل، وهي إشارة أيضًا إلى طبيعة كينونة الذات الفاعلة وتأثيرها في فعلها".

ويوضح ذلك محمد الداهي (مجلة): "يتخذ موضوع الهوى محورًا أساسيًا في دراسة سيميائية الأهواء باعتباره مسئولًا عن إنتاج الفعل. يعد الهوى بحكم التشبث بالسيميائيات النظرة الجامعة والمتسقة عنصرًا أساسًا في إنتاج الفعل" كما يقول ألجريداس غريماس، چاك فونتاني (ص١٢) ".. الهوى مُولِّد ومنتج الدلالة من خلال آثاره وتمظهراته في الخطاب السردي، بمعنى آخر يمكننا القول: يتعلق الأمر بدراسة الهوى باعتباره سابقًا على الممكنات الدلالية المستقرة".

وهو ما يحيلنا على زاويا النظر للذات وصلاتها بالموضوع، فهي إحدى الخصوصيات التي تثيرها الخاصيتان المذكورتان عن التحليل السردي؛ إذ تؤكد التأثيرَ الفعليَّ للهوى في تحديد وضع الذات بالموضوع "استثمار الهوى كفعل وبهذا يصبح الهوى يمثل الرغبة، إذ تصبح الإرادة تمثل شرطًا يجب توافره بين الرغبة والهوى ولا يمكن تصور رغبة من غير هوى أو عاطفة، وبغَضِّ النظر عن هذه العاطفة سواء أكانت إيجابية أم سلبية (الحزن الفرح الاضطراب الغضب...) أوَّلية أو نهائية ويكون ذلك قبل القيام بالعمل أو بعده، كل هذه الانفعالات هي انعكاسات إضافية خارجة عن البنيات الصيغية للفعل المتمثلة في الكفاءات".

البرنامج السردي

ونحن مع القصة الشعرية لا بد أن تحمل القصة (قصَّ: تتبَّع الأثر) مسارًا يتحرك ضمنه مطلبان بحمولة درامية يحققهما: القول والحدث، والمسار المذكور محقوق باشتغال سردي حُدِّد بالسيرورة التالية: الزمن، الصيغة والصوت، ينطلق هذا المسار الدرامي إجمالًا وفق برنامج، يقول رشيد بن مالك (ص٢٣):

١ـ التحريك manipulation (فعل الفعل faire faire).

٢ـ الكفاءة competence ماهية الفعل (etre faire).

٣ـ الإنجاز la performance فعل الماهية (faire etre).

٤ـ الجزاء (التقويم) sonction ماهية الماهية (etre etre).

چيرار چينيت Gerard genette nouveau

Jeanmari Schaffer (1989, pp. 79, 80)؟ discours du recit p. 50.

قصيدة الجَدة (أحمد شوقي) تنزيلات أسلوبية:

عتبة العنوان:

تصدَّر اسم "الجَدَّة" كعتبة لعنوان هذا النص مستهدفًا الدلالات التالية:

"ال" عهديَّة لماذا؟ ليحقق دلالات تتصل بالحمولة المعنوية التي تحيل على النص، وفي المتن ورد بضمير النسبة متوليًا ومصرحًا به مرتين، كما ورد ذكر الأب ليخدم حضور اسم الجدة، مترتبًا عنه عهديًا صورة ذهنية تتحقق صدًى وأثرًا (قوة وفعلًا) لدى المتلقي، كما تأتي الألفاظ: الصبي، الولد، المؤدب.. تتوثق بها تلك الصورة وتأتي دلالات بعض الصيغ الصرفية لتؤكد ذلك (فَعْلَان: غضبان مثلًا)، وتضفي على هذه الحمولة حساسية (سيميائية الأهواء) على صعيد التلقي، كما يؤكد ذلك المقطع الأخير (سيأتي تفصيل ذلك):

ألم تكن تصنع ما يصنع إذ أنت صبي؟

المستويات اللغوية التي تحقق ذلك:

متعلقات الجمل:

جملة: أحنَى عليَّ من أبي.

الفعل على المستوى الأفقي يتعلق بشبه الجملة: عليَّ، وجملة: من أبي كمتوالية لكن على المستوى العمودي الفعل يتعلق بـ "عليَّ" (لإثبات دلالة "ال" العهدية: الجَدَّة في العنوان وفي نص القصيدة) واستحضار دلالاتها، والبحث يعتبر هذا الاسم هو زاوية النظر، التي تعكس توترات النص الزمنية والصيغية والتفاعلية بين الكاتب والقارئ الضمني، ويؤكد ذلك حضور هذه الملامح التداولية في جمل أخرى تدفع إلى هذا المقصد:

ترأف لي / بي.

فلم أجد لي/ منه.

أجد: لي/ من مهرب.

تقول: لأبي / بلهجة.

سرَّني / تذهب: فيه مذهبي.

هذا فضلًا عن معاني الحروف المتمثل بها، فهي بدورها تدفع إلى هذا المَلْمَح على غرار المثال الأول:

- أحنَى عليَّ من أبي يقابله: مشى أبي إليّ.. مدلول إلى: انتهاء الغاية فهي تخدم المعاني المشار إليها.
- لي جدة.. يقابله: فلم أجد لي منه.. مدلول اللام مع الجدة واقترانها مع الأب بمن وهو يخدم المعنى المقصود.

- حرف الباء إذ جاء مكررًا في مواضع كثيرة دلالة الإلزاق بدوره يمثل المعاني المشار إليها.

هذا، وقد اتسم أسلوب النص بتعاضُد نَظْمين: أسلوب خبري ومعهوداته المعلومة: حيثيات أي خبر طغى على مفاصل النص، لينتهي بأسلوب إنشائي وما حققه بامتيازٍ على الصعيد التداولي؛ خصوصًا مع نظرية أفعال الكلام وهو دفع بياني يراه البحث تتعزز به الملامح العامة المشار إليها، انطلاقًا من الخاصيتين المذكورتين تفصيلًا وإجمالًا، تفصيلًا لأن ما يغلب على النص هو الخبر عضَّد واجهتَه ووجهتَه المقطعُ الأخيرُ من القصيدة (أسلوب إنشائي)، الذي جاء مجملًا كما هو واضح .

يضيف البحث إمكانية أن يكون البيت الأول لازمة إيقاعية، بهذا قد يخالف ما سلمنا به سابقًا، من حيث الخبر والإنشاء، ليكون التفصيل والإجمال بأثر تداولي مضمونه أن التفصيل يثبته الإنشاء والخبر منتهاه الإجمال في هذه القصيدة، هذا ما تُبرره نظرية أفعال اللغة، وهو ممكن إذا سلمنا افتراضًا أن تكون اللازمة متحققة في مقطعين:

المقطع الأول: بداية البيت إلى: كلهم لم تغضب

المقطع الثاني: لي جدةٌ ترأف بي

مشى أبي إليّ

والمعنى الجديد أن النص متوجه إلى قارئ حقيقي كل من يقرؤه بافتراض التخريجات التالية:

أليس كذلك؟ أليست الجَدَّات كذلك؟ أليست جداتكم بالأوصاف المذكورة؟ أي أن اللازمة تخرج زمنيًا وصيغيًا وصوتيًا بالمعطيات السردية المذكورة أسلوب النص (الخطاب) إلى حقيقة أخرى على الأقل ما ذكره البحث سابقًا وهو الهدف التعليمي، ما يعكس دراميًا بنسب متفاوتة البرنامج السردي المذكور.

يستكمل البحث التحليل على المستوى الدلالي، بما أنه استهلَّ العمل على المستوى التركيبي، ذلك من خلال ملامح الإيحاء في لغة الوصف؛ خصوصًا في ردود الأفعال على مستوى: محكي الأقوال والأحداث (المستوى السردي) ما يمكِّن وصل لغة الوصف بسيميائية الأهواء من خلال

الأمثلة التالية:

مشى أبي إليّ
مشية المُؤدِّب
غضبان قد هدَّد بالضرب
...
فجعلتني خلفها
أنجو بها وأختَبي
.. ويحُ له ويحُ لهذا
الولد المُعذَّب
ألم تكن تصنعُ ما
يصنعُ إذ أنت صبي؟

فالملاحظ ردود الأفعال وهي مشحونة بـ "الفضاء" ما يتأسس به القول أو الحدث ليتمثل المشهد أمام (القارئ) كصور ذهنية، تستعين فيه اللغة على مقدراتها إثارة (همسهسة وحساسية) لدى المتلقي وهو فعل لغوي في أصله تداولي، ضمن فعاليات عديدة على غرار الفعاليات التي حاول البحث تنزيلها والتفاعل معها؛ خصوصًا مع حساسية وخطورة هذا النوع من اللغة في هذا الحقل من الكتابة (أدب الطفل).

قائمة المصادر والمراجع:

١ـ نجيب العوفي (١٩٩٢، ص٠٧): التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، ط ٢.

٢- نبيل، منصر (٢٠٠٧، ص٢٥): الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.

٣ـ جيرار جينيت (٢٠٠٨، ص٤٩ ،٥٠).

ص ٤ـ عبد المجيد، علوي إسماعيلي (٢٠١٤، ص١٤): عتبات النص مقاربة نظرية، آراء ومواقف عبر النافذة www.dadesinfo.com

٥ـ نبيل، منصر (٧٠٠٢، ص٠٤).

٦ـ جميل الحمداوي (٢٠١٦، ص٣٨): شعرية النص الموازي، مجلة الألوكة، العدد ٢٢٤.

٧- محمد أيوب (٢٠١٢، ص ٢٠): "الأدب والفن، عتبات القصة القصيرة جدًا"، مجلة الحوار المتمدن، العدد ٣٧٣٣.

٨- ألجيرداس غريماس، جاك فونتاني (٢٠١٠، ص٦٢): سيميائية الأهواء من حالة النفس إلى الأشياء، تر: سعيد بن كراد، ط١، دار الكتاب الوحيد.

٩ـ نبيل منصر (٢٠٠٧، ص٤٥).

١٠ـ جميل الحمداوي (٢٠١٦، ص٥٨).

١١- محمد الداهي (٢٠٠٧، ص٩٤): سيمياء الأهواء، مجلة عالم الفكر (السيميائيات)، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، مج ٣٥، ع٣، الكويت.

١٢ـ ألجيريداس غريماس، جاك فونتاني (٢٠١٠، ص١٢).

١٣ـ ألجيريداس غريماس، جاك فونتاني (٢٠١٠، ص٥٣)

١٤ـ رشيد بن مالك (٢٠٠١، ص٢٣): البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الفكر، د.ط.

١٥ـ منصوري مصطفى (٢٠٠٧، ص ١٤٠): سرديات جيرار جينات وأثرها في النقد العربي الحديث، مخطوط دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس الجزائر ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨.

١٦ـ منصوري مصطفى (٢٠٠٧، ص١٦٠)

١٧ـ منصوري مصطفى(٢٠٠٧، ص ٥٣)

١٨ـ محمد، مفتاح (٢٠٠١، ص٢١٨) التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي ط٢، ٢٠٠١، ص ٢١٨